كي لا ننسى مرة أخرى

كيف استطاع الظالمون قمع الحركة الشيعية في الكوفة

قمع الحركة الشيعية في الكوفة!!

من المعروف أن أهل الكوفة كانوا يكرهون معاوية ويكنّون له الحقد والبغضاء، ويشكون بسياسته ونواياه، ولم تكن مبايعتهم له عن قناعة وإيمان، ومما يروي اليعقوبي «وأُحضر الناس البيعة، وكان الرجل يحضر ويقول: والله يا معاوية أني لأبايعك وأني لكاره لك...»[١]، وجاءت حركة حجر بن عدي كي تؤكد هذه العلاقة السلبية بين معاوية وأهل العراق في الكوفة، ومما قاله زياد بن أبيه في هذه القضية بالذات «يا أهل الكوفة، أتشجون بيد وتأسون بيد أخرى، أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر..»[٢]، وقد كان مجتمع الكوفة يمور بالمعارضة الجادَّة ويشكل نقطة توتر قابلة للإنفجار في أي لحظة، ولا بد لمعاوية أن يفكر في معالجة هذا الخطر الذي يهدد حكمه.. فماذا فعل؟!.

كانت البداية بان كتب الى المغيرة سنة ٤٢هـ أن «خذ زياداً وسليمان بن صرد وحجر بن عدي وشبث بن ربعي.. بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه في الصلاة»[٣]، ويتضح من ذلك أنها عملية محاصرة ومتابعة. وقد استطاع معاوية في إطار مساعيه هذه أن يستميل بعض أشراف الشيعة، ومن شواهد ذلك، أنه تمكَّن من محاربة «الخوارج» بـ(ثلاثة آلاف) من نقاوة الشيعة وفرسانهم بقيادة صعصعة بن صُوجان ومعقل بن قيس وشريك بن الأعور، ضارباً على الوتر الحسّاس بين علي والخوارج[٤]، وتشير المصادر بأن لهؤلاء كان حظوة عند معاوية آنذاك[٥]، ومن جانب آخر توسَّل الى غسل المخ الكوفي المشبَّع بحب علي عليه السلام، فقد روى ابن أبي الحديد «... إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم جُعلاً يرغب في مثله...»[٦]، واختتم وسائله لقمع الخطر الكوفي بالقتل والتشريد بسياسة عامة مع شيعتنا الكوفيين، وهناك حوار قصير بين عبيد الله بن زياد وهاني بن عروة يكشف عن مدى هذه السياسة الباطشة، إذ نقرأ «فقال عبيد الله: يا هانيء: أما تعلم أن أبي قدم هذا البلد ـ أي الكوفة ـ فلم يترك أحداً من هذه الشيعة إلا قتله...»[٧]، وعليه كانت هناك مجازر طاحنة في أسلافنا من شيعة العراق بعد صلح الإمام الحسن، وهو الأمر الذي أشار إليه الحسين عليه السلام في رسالته الى معاوية «.. أولست المدّعي زياداً في الإسلام ثم سلَّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل»[٨]، ويبدو أن هذه المجازر ارتفعت وتيرتها بشكل مدهش بعد مقتل حجر بن عدي وجماعته، وفي هذا نقرأ رواية في غاية الأهمية والدلالة، ففي الطبري «... وأخبرني محمد بن الفضل عن أبيه، قال: بلغني أن الربيع بن زياد ذكر يوماً

بخراسان حجر بن عدي، فقال: لا تزال العرب تقتل صبراً بعده..»[٩]، وفي الحقيقة أن الحديث في هذا المجال يطول وشواهده وصوره مبثوثة في كتب التاريخ وخاصة الطبري، ولم تكن سياسة التهجير غائبة، فقد هُجِّر الشيعة من الكوفة، والبصرة الى خراسان، وكان عددهم خمسون ألف شيعي كما يذكر البلاذري[١٠].

وتأسيساً على الحقائق التاريخية السابقة، يمكننا أن نفهم: كيف تم لمعاوية اخضاع العراقيين من أهل الكوفة، وهم أهل الوعي والرفض والتشيع والثورة، إن إستمالة بعض العناصر الشيعية الكبيرة، واغراء الشيعة بقتال الخوارج، وعمليات القتل الجماعية، وتشتيت العشائر الشيعية وتشويه سمعة علي، كل ذلك ساهم في إعطاء مثل هذه النتيجة الخطيرة، ولكن علينا أن لا ننسى هنا، تداعيات الصلح، فقد أثار شكوك بعض القيادات الكبيرة، وقد ولّد شيئاً من اليأس عند آخرين، لأن هذه الرموز لم تكن بالمستوى الفكري والسياسي، الذي يؤهلها لاستيعاب حكمة الصلح، تلك الحكمة التي كانت تنتظر ظروفها الناضجة كي تظهر ثمرتها العظيمة، وقد أثبتت عملية الصلح عمقها السياسي، إذ عدم الالتزام بموجباتها وأجواءها من قبل بعض الشيعة أعطى مبرراتٍ علنية وقويةً لمعاوية في قتل الشيعة وسفك دماءهم بهذه الطريقة المفجعة، إذ كان من رأي الإمام الحسن السكوت والمكوث حتى تحين الفرصة المناسبة ولكن للأسف الشديد لم يلتزم بهذه الاستراتيجية بعض الرموز الكبيرة فاستغل معاوية ذلك لممارسة سياسته الباطشة الخبيثة، وفضلاً عن هذا وذاك شرطة زياد من الفرس الذين كانوا آلة الامويين الرخيصة في قتل الشيعة العرب، ويبدو أن زياداً أطلق لهؤلاء المأجورين صلاحيّة واسعة لممارسة أي تصرف مع هذا الشيعي أو ذاك.

يقول الطبري: «... فضرب رجل من الحمراء ـ أي الفرس ـ يقال له: بكر بن عبيد ـ رأس عمرو بن الحمق بعمود فوقع»[١١]!!.

تُرى أي جرأة يملكها هذا (الأحمري) ليقدم على مثل هذا العمل مع أحد أبطال الشيعة العرب وصناديد أهلها؟!

يقول ابن الأثير: «... أن زياداً أوَّل من تسيَّر بين يديه بالحراب والعمد، واتخذ الفرس رابطة، لا يفارقون المسجد»[٢١]، وإذا سألنا عن هؤلاء لعرفنا أنهم من «الحمراء» أي الموالي، وبالتالي، فهم من الفرس والديلم وما شابههم.

افتقد الشيعة النظم في زمن معاوية وبعد الصلح مباشرة، واستبدت بهم الفوضى، وقد زاد من هذه الحال المتردّية أن الكوفة بالذات كانت مجتمعاً خليطاً، من عرب وفرس، كما أن هؤلاء الشيعة، كانوا قد فتَّتْ الحروب المتوالية طاقتهم الروحية والجسمية، ويكفي أن نذكر ليلة (الهرير) وحدها لكي نتصور مدى المأساة التي كانوا يعانون منها.

كان شيعة الكوفة بعد الصلح وجوداً مضطرباً، يحمل في داخله عنصر الثورة، ولكنه مشتت الإرادة، فاقد نقطة الارتكاز، لم يعرف قيادته جيداً، معرض لعوامل الجذب والطرد بين الحياة

والموت، يتابعه الارهاب، ارهاب الجسد وارهاب الكلمة، محاصر من كل جهة.
ترى كشيعة هل نأخذ العبرة من ذلك الدرس العظيم؟!.

الهوامش

(١) اليعقوبي: ٢/ ١٦.
(٢) الطبري ٥/ ٢٥٨ طبع: دار الفكر.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٩٥.
(٤) الطبري ٥/ ١٨٥ ـ ١٨٩.
(٥) الطبري ٥/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٦) شرح النهج ٤/ ٦٣
(٧) الطبري ٥/ ٣٦١.
(٨) الامامة والسياسة ١/ ١٨١.
(٩) الطبري ٦/ ٢٠٨.
(١٠) فتوح البلدان ٣/ ٥٧.
(١١) الطبري ٦/ ١٧٤.
(١٢) الكامل ٣/ ٣٠٧.
(١٣) الطبري ٦/ ١٩٧.

Im Namen Allahs,
des Gnädigen, des Barmherzigen
Die Gläubigen sind ja Brüder.
So stiftet Frieden zwischen euren Brüdern.
(Sure al-Ḥuǧurât, Vers 10)